الحكايات والأخبار التي يحملها الشعب في مخيلته. وقد استعمل غسّان كنفاني طريقة مغايرة لربط الأحداث بالواقع في رواية «برقوق نيسان»، وهي استعمال الهوامش حتى يشعرنا بأنّه يتحدث عن أشخاص حقيقيين. انّ البطل، في هذه الروايات الثلاث، ليس إلّا أداة تصوير للواقع؛ إذ ليس له خصوصيات فردية انّما هو أداة تعبير عن المجموعة في ماضيها وواقعها وأحلامها المستقبلية.

انّ ما ذكرناه ما هو إلّا توضيح للاطار العام الذي تندرج فيه هذه الروايات، ولكنّ غسّان كنفاني يؤمن بضرورة البحث عن أجدى الأشكال لابلاغ أفكاره، ثمّ هو يعيش واقعاً متغيراً لا يمكن أن يدفعه للاستقرار. لذلك كانت رواياته، وان تشابه بعضها في الشكل العام، تختلف في أسلوبها بل تكاد تكوّن كلّ واحدة منها تجربة فنيّة مستقلة.

ولعلّ غسّان كنفاني كان يحدوه، في هذا البحث المتواصل، شعور فني أصيل عبّر عنه أرنست فيشر عندما قال: «انّ وسائل تعبير جديدة لضرورية من أجل وقائع جديدة (...) انّ المسألة ليست تقليد أسلوب ما، بل هي كامنة في ربط أكثر العناصر تبايناً في الشكل والتعبير من هيكل الفنّ ذاته بحيث يجد وحدته في واقع متباين الى أبعد الحدود. انّ كلّ مظاهر الامانة المتزمتة للمناهج الفنية الخاصة هي كائناً ما كانت في تناقض مع المهمة التي تقوم على خلق حصيلة نتائج آلاف السنين من التطور الإنساني ومع مهمّة وصف محتوى جديد بأشكال جديدة[٢]. لقد حاول غسّان أن يجرّب، ولعلّ السمة البارزة في رواياته هي عدم الاستقرار على شكل محدّد، ولهذا وجدنا صعوبة في حصر الأساليب التي استعملها ولعلّ جهدنا سيقتصر على تتبع السمات البارزة في رواياته، ولنبدأ بالبحث في البناء...

ان أقرب رواية عند غسّان كنفاني للبناء الكلاسيكي هي رواية «عائد الى حيفا»؛ حيث تسير الأحداث فيها سيراً خطياً متواصلاً وتتعقد الحبكة بوضوح، ثمّ تنحل في النهاية؛ ولكن غسّان يقحم فيها حكاية أخرى تبدو كأنها تستفزّ البناء الأصلي وتقلقه؛ وهي حكاية «فارس اللبدة» التي لا ارتباط لها بالرواية الأصلية الا من حيث الايحاء بالخاتمة. وفي رواية «رجال في الشمس»، اعتمد من حيث سير الأحداث على التوتر المتصاعد، ثمّ أنهى الرواية بالحلّ المتمثل في موت الأبطال إلّا أنه أقحم في هذا البناء طريقة اللوحات التي قدّم بها الأبطال الثلاثة في بداية الرواية، وهي لوحات منفصلة لا رابط بينها كما أنه استعمل طريقة مشابهة في «الأعمى والأطرش» عندما صوّر ما يدور في ذهن كلّ من البطلين أو ما يقع له على حدة. وبذلك، نجد في الرواية تتابعاً لفصول تبدو وكأنها مستقلة. على أن هذه التجاوزات في البناء لا تحطمه، وهي من باب التوسيع لا الاخلال. ولكن الرواية التي تضعنا في حرج أكبر هي «ما تبقى لكم»؛ إذ تغيم فيها الحبكة الروائية المتمثلة في بروز المشكل العائلي الذي حلّ بمريم وحامد وجعل علاقتهما تنقطع، وجعل كلًّا منهما يبحث عن خلاصه الشخصي بعد أن تهادن مع الواقع ست عشرة سنة، تغيم هذه الحبكة وراء تقنية تقاطع الشخصيات وتداعي الشعور، بحيث نشعر أنّ الكاتب يذيلها عمداً، وأنّ المقصود من الرواية هو غايات أخرى أعمق من مجرد الأحداث التي تعرضها الحبكة.

ومن خلال هذه الروايات الأربع، نلاحظ أنّ غسان يستعمل البناء الروائي